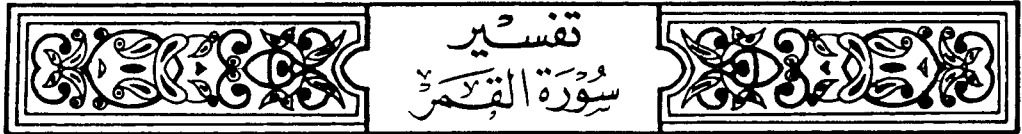


وسخرية ﴿وَلَا يَبْكُونَ﴾ أي كما يفعل الموقنون به، كما أخبر عنهم ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: 109] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ [١١] عن ابن عباس قال: الغناء، هي يمانية، اسمد لنا، أي غن لنا، أو ﴿سَيِّدُونَ﴾ معرضون. ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له، والعبادة وهي المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [١٧] أي فاخلعوا له وأخلصوا ووحده. روى البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم.



كان رسول الله ﷺ يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [١] وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى: ﴿أَنَّهُ أَمْرٌ إِلَهٌ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [١] و﴿لَا نَبِيَّاءَ﴾ [١] روى الإمام أحمد عن خالد بن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان، قال بهر. وقال قبل هذه المرة: خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن الدنيا قد أذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصاها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقي من شفير جهنم فيهي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعرًا، والله لتملأه أفعبجتم؟ والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام» انفرد به مسلم. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فأنشأ القمر بمكة مرتين فقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [١] ورواه مسلم ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿يُعْرِضُوا﴾ أي لا ينقادوا له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجاج سحر سحرنا به. ومعنى ﴿مُسْتَعْتِرٌ﴾ أي ذاهب، أو باطل مضمحل لا دوام له ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم،

وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ معناه أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. قال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۖ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسول، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب. ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾ أي في هدايته تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذي يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: 149] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101].

﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۖ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۖ مَّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٨﴾

يقول تعالى: فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأحوال ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق، ولهذا قال: ﴿مَّهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي يوم شديد الهول، عبوس قمطير ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عِزٌّ يَبِيرُ ﴿[المدثر: 9-10]﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۖ ۝١٠ فَادْعَا رَبَّهُ ۖ إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۝١١ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ ۝١٢ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ ۝١٣ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٤ تَجْرِ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٥ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ۝١٦ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٧ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ۝١٨﴾

﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي صرحوا له بالتكذيب، واتهموه بالجنون ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ أي استطير جنونا، أو انتهره وزجروه وتواعده ﴿لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنْتَهِ لَنُوحِيَ لَكُورٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الشعراء: 116] وهذا متوجه حسن ﴿فَدْعَا رَبَّهُ ۖ إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ۝١١﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء، وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك. قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَرٍ ۝١٢﴾ هو الكثير ﴿وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التناير التي هي محال النيران نبعت

عِيُونًا ﴿فَأَلْقَى الْمَاءَ﴾ أي من السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ قَدِّدٍ﴾ أي أمر مقدر ﴿وَحَمَلَتْهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرَ﴾ (١٣) هي المسامير، وواحد دسار، ويقال: دسير، كما يقال: حبك وحبك والجمع حبك. أو الدسر أضلاع السفينة، ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بأمرنا، بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ أي أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ لَمْ أَنَا حَلَمْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (١٤) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ ﴿١٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿١٧﴾ [يس: 41-44] وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا طَفَا الْمَاءَ حَمَلَتُكُمُ الْفُلَارِيَّةَ﴾ (١٨) لِتَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٩﴾ [الحاقة: 11، 12] ولهذا قال ههنا ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أي سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: 97].

﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (٢٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿٢١﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٢﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم هود أنهم كذبوا رسولهم أيضاً كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل عليهم ريحاً صَرْصَرًا وهي الباردة الشديدة البرد ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ أي عليهم ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالآخروي ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (٢٢) وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض فتشلق رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، ولهذا قال: ﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ (٢٣) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٥﴾.

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ (٢٦) فَقَالُوا أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٧﴾ أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٨﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٩﴾ إِنَّا مَرْسِلُوا الْتَافَةَ فَنَنَّةَ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٣٠﴾ وَبَشِّرْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ﴿٣١﴾ فَادَّوْا صَاحِبَكُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٣٢﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ ﴿٣٤﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ (٢٧) يقولون لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا، ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه

خاصة من دونهم. ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي متجاوز في حد الكذب. قال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْآثِرِ ٢١﴾ وهذا تهديد لهم، ووعيد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فَمَنَّةً لَهُمْ﴾ أي اختباراً لهم، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء طبق ما سألوا لتكون حجة عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به. ثم قال تعالى أمراً لعبده ورسوله صالح عليه السلام: ﴿فَارْتَبِعْهُمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم فإن العاقبة لك، والنصر في الدنيا والآخرة ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فَمَنَّةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة، كقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥﴾ [الشعراء: 155] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ مُّخَضَّرٌ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن. ثم قال تعالى: ﴿فَادَاوُا صَالِحًا﴾ هو عاقر الناقة، واسمه قدار بن سالف، وكان أشقى قومه كقوله تعالى: ﴿إِذِ اتَّبَعْتَ أَشْقَاهَا ١٢﴾ [الشمس: 12] ﴿فَلَعَلَّيْ﴾ أي حسر ﴿فَمَقَرَّ ١٦﴾ فكيف كان عذابي ونذري ﴿٢٠﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي، وتكذيبهم رسولي ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ ٢١﴾ أي فبادوا عن آخرهم، لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهدم يبسى الزرع والنبات. والمحتظر: هو المرعي بالصحراء حين يبيس ويحترق وتسفيه الريح.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ٢٢﴾ كَذَّبَ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ٢٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ٢٤ نِعْمَةً مِنَّا عِندَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ٢٥ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ٢٦ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ ٢٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ٢٨ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ ٢٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسلها، وأتبع بحجارة من سجيل منضود، ولهذا قال ههنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهي الحجارة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ولم يبق من بلوط من قومه أحد، ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته، فقد أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسه سوء، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ٢٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا أَي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه، وتماروا به ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ﴾ وذلك ليلة ورد عليه جبريل وميكائيل وإسرافيل في صورة شاب مرد حسان محنة من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعث امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط عليه السلام

يدافعهم، ويمنعهم دون أضيافه ويقول لهم ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: 78] يعني نساءهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ [يوسف: 10] ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: 79] أي ليس لنا فيهن أرب ﴿وَأَنَّكَ لَلْعَاقِلِ مَا تَرْيَدُ﴾ [هود: 79] فلما اشتد الحال، وأبوا إلا الدخول خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم، يقال: إنها غارت من وجوههم، وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على أديبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ [٢٨] أي لا محيد لهم عنه، ولا انفكاك لهم منه ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرِ﴾ [٢٩] وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾.

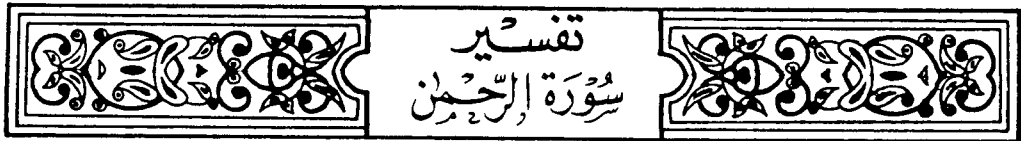
﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [٤١] كَذَبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَآخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارًا خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والنذارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة، وآيات متعددة فكذبوا بها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أي فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر. ثم قال تعالى: ﴿أَكْفَارًا﴾ أي أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب، أنتم خير من أولئك؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي أمعكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال؟ ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ أي يعتقدون أنهم يتناصرون، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء. قال تعالى: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [٤٥] أي سيتفرق شملهم ويغلبون. روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [٤٥] بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [٤٧] يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَذَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ لِلنَّافِلِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى عن المجرمين: إنهم في ضلال عن الحق، وسوء مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق. ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي كما كانوا في سوء وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً

يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أي يذهبون، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۖ﴾ كقوله: ﴿وَعَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرٌ لِّقَدِيرٍ﴾ [الفرقان: 2] وكقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۚ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۚ﴾ [الاعلى: 1-3] أي قدر قادراً وهدى الخلاق إليه، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية، وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة. وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب «وكان عرشه على الماء». ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۖ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ﴾ أي إنما نأمر بالشئ مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح بالبصر، لا يتأخر طرفة عين ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسول ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَجِلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ﴾ [سبا: 54] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۖ﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أي من أعمالهم ﴿مُسْتَطَرٌّ﴾ أي مجموع عليهم، ومسطر في صحائفهم، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن نها من الله طالباً» ورواه النسائي وابن ماجه. ﴿إِنَّ الْفُتَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۖ﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب في النار على وجوههم مع التوبيخ والتقريع والتهديد. ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ أي عند لملك العظيم، الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» انفرد بإخراجه مسلم والنسائي.



روى الترمذي عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على